أطفـــال المـــاء

The Water-Babies

(١)

توم كناس المداخن

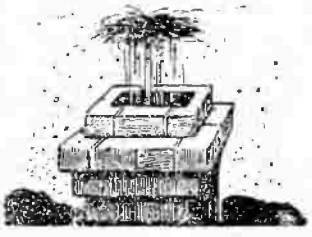

كَانَ « تُومْ » كَنَّاسُ الْمَدَاخِنِ ، جَاهِلاً ، لاَ يَقْرَأُ وَلا يَكْتُبُ ، وَلا يَغْسِلُ وَجْهَهُ وَلا جِسْمَهُ ، إِذْ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئاً مِنْ هٰذِهِ الأَعْمَالِ . وَكَانَ عَمَلُهُ شَاقّاً لِلْغَايَةِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْعَدَ فِى دَاخِلِ الْمَدَاخِنِ الْمُظْلِمَةِ الضَّيِّقَةِ ، فَتَسْلَخُ رُكْبَتَاهُ وَكُوعَاهُ ، وَيَدْخُلُ الدُّخَانُ (الهباب) فِى عَيْنَيْهِ ، وَيَتَلَطَّخُ بِهِ وَجْهُهُ ، حَتَّى يَصِيرَ كَالْعَبْدِ الأَسْوَدِ الصَّغِيرِ ، هٰذَا مَعَ قَسْوَةِ سَيِّدِهِ ، الَّذِى كَانَ يَضْرِبُهُ كَثِيراً ، وَيُغَذِّيهِ قَلِيلاً .

وَفِى السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ مِنْ صَبَاحِ أَحَدِ الأَيَّامِ ، قَامَ « تُومْ » وَسَيِّدُهُ « جْرِيمْسْ » قَاصِدَيْنِ قَصْرَ أَحَدِ الأَعْيَانِ ، لِتَنْظِيفِ مَدَاخِنِهِ . وَكَانَ السَّيِّدُ « جْرِيمْسْ » يَسِيرُ فِى الْمُقَدِّمَةِ رَاكِباً حِمَارَهُ ، وَغُلاَمُهُ فِى فَمِهِ ، بَيْنَمَا كَانَ « تُومْ » يَجْرِى وَرَاءَهُ ، حَامِلاً الْفَرَاجِينَ ، وَمَرَّا فِى الطَّرِيقِ بِامْرَأَةٍ إِرْلَنْدِيَّةٍ فَقِيرَةٍ ، تَحْمِلُ عَلَى ظَهْرِهَا صُرَّةً كَبِيرَةً ، تَسِيرُ كَالْعَرْجَاءِ بِبُطْءٍ وَأَلَمٍ ، فَقَدْ كَانَتْ حَافِيَةَ الْقَدَمَيْنِ ، وَكَانَتِ الأَرْضُ صَخْرِيَّةً خَشِنَةً ، وَلٰكِنَّهَا كَانَتْ غَايَةً فِى الْجَمَالِ ، لَهَا عَيْنَانِ نَجْلاَوَانِ ، وَشَعْرٌ أَسْوَدُ فَاحِمٌ ، فَأُعْجِبَ بِهَا السَّيِّدُ « جْرِيمْسْ » ، وَنَادَاهَا قَائِلاً : « هٰذِهِ الأَرْضُ الْخَشِنَةُ لاَ تُنَاسِبُ هَاتَيْنِ الْقَدَمَيْنِ الْجَمِيلَتَيْنِ ، فَهَلْ تَتَفَضَّلِينَ بِالرُّكُوبِ خَلْفِى؟ » فَأَجَابَتْهُ بِبُرُودٍ قَائِلَةً : « أَشْكُرُ لَكَ . وَلٰكِنِّى أُفَضِّلُ السَّيْرَ مَعَ صَبِيِّكَ الصَّغِيرِ . »

وَهٰكَذَا سَارَتْ بِجِوَارِ « تُومْ » ، وَحَادَثَتْهُ كَثِيراً عَنْ حَالَتِهِ وَسِيرَتِهِ ، حَتَّى اعْتَقَدَ أَنَّهَا أَطْيَبُ امْرَأَةٍ قَابَلَهَا . وَسَأَلَهَا عَنْ مَحَلِّ إِقَامَتِهَا ، فَأَخْبَرَتْهُ بِأَنَّهُ بَعِيدٌ بِجِوَارِ الْبَحْرِ . وَلَمْ يَكُنْ

« تُوم » قَدْ رَأَى الْبَحْرَ مِنْ قَبْلُ ، فَاخَذَتْ تَصِفُ لَهُ الْبَحْرَ وَجَمَالَهُ الطَّبِيعِيَّ ، وَمَا يَتَمَتَّعُ بِهِ النَّاسُ فِيهِ ، مِنَ اسْتِحْمَامٍ وَنُزْهَةٍ وَرِيَاضَةٍ ، حَتَّى اشْتَاقَ لِرُؤْيَتِهِ وَالاسْتِحْمَامِ فِيهِ .

وَعِنْدَ مَا اقْتَرَبُوا مِنَ التَّلِّ ، صَادَفُوا نَبْعًا صَغِيرًا ، صَافِيَ الْمَاءِ ، فَتَرَجَّلَ « جْرِيمُسْ » وَغَمَسَ رَأْسَهُ فِي الْمَاءِ ، وَغَسَلَ وَجْهَهُ . وَطَلَبَ « تُومْ » مِنْ سَيِّدِهِ أَنْ يَسْمَحَ لَهُ بِغَسْلِ وَجْهِهِ فِي النَّبْعِ أَيْضًا ، وَلَكِنَّ سَيِّدَهُ نَهَرَهُ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَتْبَعَهُ ، فَتَضَايَقَ « تُومْ » ، وَجَرَى نَحْوَ النَّبْعِ ، فَجَرَى سَيِّدُهُ خَلْفَهُ ، وَأَمْسَكَهُ ، ثُمَّ أَخَذَ يَضْرِبُهُ ضَرْبًا مُبَرِّحًا .

وَلَمْ تَحْتَمِلِ الْمَرْأَةُ هٰذِهِ الْقَسْوَةَ ، فَصَرَخَتْ فِي وَجْهِ « جْرِيمُسْ » قَائِلَةً : « أَلَا تَخْجَلُ مِنْ شِدَّةِ قَسْوَتِكَ عَلَى هٰذَا الطِّفْلِ الْمِسْكِينِ ؟ كَانَ الْأَجْدَرُ بِكَ أَنْ تُكَفِّرَ عَنْ ذُنُوبِكَ الْمَاضِيَةِ ، وَتُحْسِنَ إِلَى هٰذَا الْوَلَدِ الصَّغِيرِ » . ثُمَّ أَخَذَتْ تَسْرُدُ لَهُ كَثِيرًا مِنْ وَقَائِعِهِ الْمَاضِيَةِ السَّيِّئَةِ ، حَتَّى انْزَعَجَ الرَّجُلُ ، وَخَشِيَ عَاقِبَةَ الْفَضِيحَةِ ، فَجَرَى نَحْوَ حِمَارِهِ ، بِدُونِ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلٰكِنَّهَا الْحَقَتْ بِهِ ، وَتَابَعَتْ حَدِيثَهَا قَائِلَةً : « فِفْ ! سَأَقُولُ لَكُمَا كَلِمَتِي الْأَخِيرَةَ : مَنْ أَرَادَ النَّظَافَةَ صَارَ نَظِيفًا ، وَمَنْ أَرَادَ الْقَذَارَةَ صَارَ قَذِرًا » . ثُمَّ تَرَكَتْهُمَا وَوَلَّتْ نَحْوَ مَزْرَعَةٍ ، وَمَا كَادَتْ تَدْخُلُ مِنْ بَابِهَا ، حَتَّى اخْتَفَتْ عَنِ الْأَنْظَارِ .

وسارت بجانب توم تحادثه

وَأَخَذَ « جْرِيمُسْ » يُنَادِيهَا وَيَبْحَثُ عَنْهَا ، فَلَمْ يَعْثُرْ لَهَا عَلَى أَثَرٍ ، فَانْزَعَجَ ، وَامْتَطَى حِمَارَهُ ، وَوَلَّى هَارِبًا ، يَتْبَعُهُ « تُومْ » فِي سُكُونٍ .

(يتبع)